وثائق بريطانية تكشف القناع عن سياسة الامبراطورية البريطانية إبان احتلالها الجزر والموانئ اليمنية

الأسطول البريطاني يقصف اللحية والحديدة حتى تلتهم النيران الكثير من المنازل والمنشآت ويسقط عشرات القتلى ومئات الجرحى من المدنيين

شهدت اليمن في سنتي١٩١٤ ـ ١٩١٩م، أحداثاً خطيرة.
فقد اندلعت الحرب العالمية الأولى بين الإمبراطورية البريطانية والخلافة العثمانية والتي كانت شمسها تجنح إلى المغيب، وكان من الطبيعي ان يلقي الصراع العسكري بين البلدين بظله الثقيل على اليمن واليمنيين وعلى وجه التحديد على سواحل وموانئ اليمن التي كانت ترابط بها القوات العثمانية..
ولقد قررالعسكريين البريطانيون أن تحاصر بريطانيا العظمى بأسطولها القوي الذي كان يعد في ذلك الوقت أقوى أسطول في العالم سواحلها وموانئها.

محمد زكريا

معارك على أرض اليمن

دارت معارك عنيفة بين الأسطول البريطاني الضخم والقوات العثمانية المرابطة في عدد من الموانى اليمنية . فقد كانت اليمن تمثل لبريطانيا العظمى جبهة قتال هامة بسبب احتكاكها وتماسها مع اليمن فقد كانت عدن درة تاج الإمبراطورية البريطانية ، الجبهة المواجهة للعثمانيين في اليمن ولذلك كانت تعمل على حمايتها من أية خطر عثماني يمكن أن يمسها بسوء . والحقيقة أن تلك الصراع السياسي والعسكري بين الدولة العثمانية وبريطانيا العظمى في الحرب العالمية الأولى . يكشف مدى ما عانت منه اليمن من ويلات الحرب الذي ألقى بظله الثقيل عليها .

وفي الواقع إن ذلك الصراع بين الدولة العثمانية التي انحازت إلى ألمانيا القيصرية ضد بريطانيا في الحرب العالمية الأولى جعلت الأخيرة تكشف عن قناعها إزاء أطماعها للممتلكات الرجل المريض الدولة العثمانية.

اللحية تشتعل

والحقيقة إن تلك الأحداث الخطيرة والدامية التي وقعت في جزر وموانئ اليمن على سبيل المثال اللحية التي تعرضت إلى قصف شديد من الأسطول البريطاني كان من نتائجها أن اشتعلت النيران في الكثير من أحيائها وأدى إلى حدوث قتلى وجرحى بين سكانها الآمنين . قلنا : أن تلك الأحداث الخطيرة قد سجلتها الوثائق البريطانية ، ولقد كشف القناع عنها الباحث البريطاني الأستاذ جون بولدري الذي أعتمد اعتمادا كليا على تلك الوثائق البريطانية التي روت أحدث تلك الفترة الهامة من تاريخ اليمن الحديث.

وعلى الرغم من أهميتها إلا أن الباحث بولدري كان يعرض أحداث تلك الفترة السياسية والعسكرية من وجهة نظر بريطانية بحته ــ على قول سيد سالم مصطفى ــ ولقد ضرب مثالا على ذلك عندما قصفت اللحية من قبل الأسطول البريطاني ، فما كان من القوات العثمانية أن أحرقت المدينة على من فيها عقابا للقصف العنيف من البريطانيين ضدهم . وربما كان مناسبا أن نذكر ما قاله الأستاذ الدكتور سيد سالم الذي قام بترجمة الكتاب الذي حمل عنوان " العمليات البحرية البريطانية ضد اليمن أبان الحكم التركي ١٩١٤ – ١٩١٩م للباحث البريطاني جون بولدري حيث كتب يقول : " ... عن محاولة العثمانيين حرق مدينة اللحية، فان اعتماده فقط على وثائق السفن البريطانية التي كانت تقصف الحامية العثمانية ، جعله لم يقبل على تفسير هذه المحاولة الجنونية ، ولم يقدم تفسيرا مقنعا إلا ما قدمته تقارير السفن البريطانية بأن المحاولة أنما كانت من قبيل الانتقام من قسوة العنف التي تعرضت لها الحامية.

ويسترسل :

لكن هذا التفسير لا يشفي غليلا، فهو منطلق من قادة في مركز القوة ، غير أن التساؤل يظل قائما وهو كيف يقدم رجال الحامية على هذا التفكير وإلى أين يذهبون؟ فالسفن تحاصرهم بحرا ، وقوات الا دريسي تحيط بهم برا ، والأهالي تراقبهم داخل المدينة ، فهل يدفعهم الإنتقام وحده إلى حرق المدينة ؟ أم يلجأون إلى الثبات والصمود والتقرب إلى الأهالي كما فعلوا في مواقع ساحلية أخرى طبقا لما ذكره الباحث نفسه خلال البحث " .ويؤكد الدكتور سيد سالم في موضع أخر من صفحات الكتاب ، أن الباحث " بولديري" لم يستطيع التخلص من هيمنة الوثائق البريطانية على أسلوب تفكيره ، فيقول في هذا الصدد : " ... أن سيطرة الوثائق البريطانية على البحث قد أثر على موقف الباحث من التفسير والتحليل المطلوبين للأحداث التي ساقتها الوثائق نفسها. ويتضح هذا فيما ذكره المؤلف عن شيخ " معاوية " ، الشيخ محمد ناصر مقبل الذي عقدت معه بريطانيا اتفاقا محدودا من أجل اثارة المتاعب في وجه الأتراك في جهات ((القمبرة والعدين والحجرية وأب والمخا وقعطبة)) ، ويعمل على طردهم من لواء تعز ، غير أن الشيخ فشل في أن يقوم بأي عمليات حربية ذات أهمية تذكر ... ولا شك أن الوثائق المحلية التي عثرنا عليها ... تفسر لنا بوضوح أن أهالي لواء تعز قد استجابوا بالفعل إلى نداء العثمانيين إلى الجهاد ، وزحفوا معهم ألى ((لحج)) وأمدوهم بالمال والغذاء " . وأضاف قائلا : " وتعاطفوا مع حملة ((علي سعيد باشا)) إلى حد كبير ، وهذا كله يوضح أسباب فشل شيخ (ماوية) في تأدية مهمته ، أي في تحقيق انتصارات عسكري أوسياسية ضد العثمانيين في منطقته " .

تفكير الساسة البريطانيين

ومن الايجابيات التي أنبثقت من الوثائق البريطانية ، يقول عنها الدكتور سيد سالم كالتالي : " ... لاحظنا منذ الوهلة الأولى عند الاطلاع على هذا البحث ، أن (بولديرى) قد أعتمد بشكل مطلق على مصادر إنجليزية بحته ، القليل منها كتب مطبوعة منشورة ، أما أغلبها فهي وثائق رسمية مازالت داخل ملفاتها في دور المحفوظات البريطانية المتعددة " . ويواصل سيد سالم حديثه قائلا : " ومن ناحية ثانية ، فان هذا الاعتماد الكلي على الوثائق البريطانية ، قد أتاح لنا فرصة الاطلاع على ما تحكيه هذه الوثائق ، وهو مايصعب الإطلاع عليه لبعد المسافة ، وطول الإجراءات " . وأضاف قائلا : " ومن ناحية ثالثه ، فان سيطرة الوثائق على البحث ، وبهذا القدر الكبير الذي أستخدمه الأستاذ (بولدري) قد يفيد في التعرف على تفكير الساسة والعسكريين البريطانيين في تلك الآونة

المسميات التاريخية

ومن الملاحظات القيمة الذي طرحها الدكتور سيد سالم في مقدمته للكتاب وهي كالتالي : " من المعروف أن المنهج العلمي يفرض على من يتعرض لكتابة التاريخ أن يلتزم بالمسميات التاريخية التي تفرض نفسها في فترات معينة ، لذلك نأخذ على الأستاذ (بولدري) أنه أطلق ((الإمبراطورية العثمانية)) اسم ((تركيا)) ـ كذلك غيرها من الإشتقاقات مثل : ((الأتراك .. ، التركية)) ــ رغم أننا نعلم أن هذه ((الإمبراطورية)) لم تختف من المسرح التاريخي إلا عقب الحرب العالمية الأولى ، أي بعد الفترة التي تناولها البحث ، إذ لم تظهر ((تركيا)) الحديثة ــ لكي تدخل أبواب التاريخ ــ إلا بعد عقد معاهدة ((لوزان)) عام ١٩٢٣م " . ويضيف قائلا :" وبناء على ذلك كان الأجدر استخدام لفظ : ((العثمانية)) ، بدل ((تركية)) طالما كانت هذه التسمية هي التي تطابق المرحلة التاريخية التي تتدرج تحتها فترة هذا البحث " .

الحرب وأثرها على اليمن

والحقيقة لقد تأثرت اليمن بالحرب العالمية الأولى تأثيرا واضحا ، علما أنها أي اليمن كانت جبهة من جبهات القتال الشرسة التي دارت بين بريطانيا العظمى والدولة العثمانية بحكم وجود الأولى في عدن مركز قيادتها ، والثانية في اليمن ، فكان ضروري أن يشتعل بينهما فتيل القتال . وفي هذا الصدد يقول سيد سالم : " ... يخطىء من يقول أن اليمن لم تتأثر بأحداث الحرب العالمية الأولى ، لموقفها الحيادي ، أو لبعدها عن ميدان الحرب الرئيسي في فرنسا وفي أوربا عامة ، منطقة الشرق الأدنى ، فمن يطلع على جزئيات هذا البحث يلمس أن اليمنيين قد فقدوا المئات من زوارقهم الشراعية التي كانت تعرف بـ ((الداوات)) ، ومن منازلهم ومنشآتهم على الساحل . وهي جميعا ممتلكات خاصة بالشعب اليمني ، رغم أنه لم يكن طرفا في الحرب " . ويضيف قائلا : " وترتب على هذا أن عانت البلاد برمتها ـ سهولها وجبالها ـ من الحصار البحري وبالتالي ((الاقتصادي)) الذي فرض عليها ، وقاسى الشعب منه كثيرا طوال فترة الحرب " .

عدن درة التاج البريطاني

والحقيقة أن عدن كانت في نظر الساسة والعسكريين البريطانيين الموقع الاستراتيجي الذي لا يمكن الاستغناء عنه وضرورة الاستماتة في الدفاع عنه ، على الرغم أن القوات البريطانية في عدن والتي تعتبر مركز القيادة العسكرية البريطانية لا تمتلك القوة الضاربة التي تمكنها من صد البريطاني للحديدة ، اشتباكات بحرية صغيرة ضد الموانى اليمنية إبان الحكم التركي ١٩١٤ـ ١٩١٨ وغيرها من العناوين الهامة والمثيرة .

وسنقتطف بعض ما ذكره الباحث البريطاني (بولدري) حول الاحتلال البريطاني لجزر البحر الاحمر ، فيقول : " في ١٧فبراير ١٩١٥ ، تعرضت مسألة ارسال حملة لاحتلال جزر البحر الأحمر للدراسة مرة أخرى ، عندما أبلغ المقيم البريطاني في عدن حكومة الهند بوصول برقيات ورسائل بريدية وأموال إلى القيادة التركية في اليمن ، كانت قد أرسلت في زوارق صغيرة من ((جدة)) إلى اليمن .

احتلال كمران

.. ويواصل (بولدري) حديثه : وقد كتب المقيم : " أن مما له أهمية قصوى " أن يتم وقف هذه الاتصالات ، وأقترح الارسال السريع لقوة قوامها مائتا رجل على متن السفينة (امبرس أوف راشيا) ، والسفينة (منتو) للاستيلاء على ((كمران)) التي سوف تستخدم منذ الوقت كقاعدة للعلميات البحرية في المستقبل " .

وتتواصل الرسائل بين المقيم البريطاني في عدن ــ والذي كان الأخير يلح على ضرورة إحتلال جزيرة (كمران) لاهميتها العسكرية ــ وحكومة بومبي ، وحكومة صاحبة الجلالة في لندن . وكيفما كان الأمر ، فان الاتفاق قد تم على ضرورة احتلال جزيرة (كمران) ، وعدد من الجزر اليمنية في البحر الأحمر نظرا لأهميتها الإستراتيجية العسكرية لبريطانيا العظمى وهي ((حنيش الكبير)) ، وجزيرة ((زقر)) . وربما كان مناسبا أن نذكر ما وأورده الباحث البريطاني (بولدري) حول الإحتلال العسكري البريطاني لتلك الجزر اليمنية الواقعة على البحر الأحمر ، فيقول : " وفي ٨ يونية ، وصلت السفينة إلى جزر ((حنيش الكبير)) هبط إلى الأرض ضابط هندي و ٤٥ رجلا من لواء المشاه ١٠٩ مع رجال المدفعية الميكانيكية رقم ٤٥٠ ، ومجموعة معدة من المشاة ــ وفي وقت متأخر من نفس اليوم هبط عدد مماثل من القوات إلى جزيرة (زقر) حيث رفع العلم البريطاني في مكان واضح . وفي اليوم التاسع من يونيه ، أنزلت السفينة ((أمبرس أوف رشيا)) مجموعة مسلحة تحت قيادة الميجور فيلوز من لواء المشاة رقم ١٠٩ إلى (كمران) " .

كل هذه الاعمال العسكرية البريطانية المتمثلة في إحتلال عدد من الجزر اليمنية الواقعة على البحر الأحمر تعطينا فكرة واضحة على مدى خشية بريطانيا العظمى من محاولا من دول أجنبية مثل ايطاليا أو المانيا من احتلال بعض الجزر اليمنية في البحر الأحمر من والعمل على حصار القوات العثمانية البرية المرابطة في عدد من موانى اليمن من ناحية أخرى . وكان لها ذلك بالفعل ، فقد عانت اليمن من ذلك الحصار البحري البريطاني معاناة شديدة .

احتلال الحديدة

وندما لفظت الحرب العالمية الأولى أنفاسها ، كانت من نتائجها هو استسلام الدولة العثمانية وخروجها من المسرح السياسي التي كانت تتبوأ بطولته وقت طويل ، وكانت في يوم من الأيام مركز الأحداث السياسية العظيمة في أوربا وخصوصا في البلقان ، والعالم العربي .

وكيفما كان الأمر ، فان الدولة العثمانية خرجت من الحرب العالمية الأولى منهوكة القوى وقد جنحت شمسها إلى المغيب . وعندما وضعت الحرب أوزارها في اليمن ، كان على الدولة العثمانية أن ترحل من موانئ اليمن ومنها ((الحديدة)) ، حسب اتفاقية الهدنة وهي " استسلام جميع الحاميات (التركية) في الحجاز وعسير ، واليمن ، وسوريا والعراق إلى اقرب قائد من قادة الحلفاء .... لكن الوالي التركي ، والقائد العام في صنعاء رفضا الإذعان لأنهما لم يتسلما تعليمات من حكومتها . ومنعت الفصائل التركية جميعا ((منعا باتا)) من أن تستسلم ، وذلك بأمر من القائد العام " .

وعندما بدأت القوات البريطانية أو الأسطول البريطاني يقترب من الحديدة لرحيل (الأتراك) منها . فإذا بالحامية العثمانية ترفض الإذعان البريطاني من الخروج من المدينة . والحقيقة أن الحامية العثمانية في الحديدة حاولت تأخير خروجها من المدينة حتى تصل تصريحات واضحة من القائد العام العثماني في اليمن من مغادرتها . وكان ذلك مما أغضب بريطانيا ، فشنت هجوما عنيفا بالمدافع الثقيلة على المدينة ، وإزاء ذلك " انسحب الأتراك إلى الداخل في مواجهة التقدم البريطاني تاركين القوات البريطانية تسيطر سيطرة تامة على المدينة . وكانت خسائر القوات البريطانية عند الاستيلاء على المدينة هي إصابة ثلاثة رجال بجروح ، في حين أنها أسرت خمسة ضباط وأحد عشر رجلا برتب أخرى " .

هدف احتلال الحديدة

ويعلل الباحث البريطاني جون بولدري أسباب احتلال بريطانيا للحديدة كالتالي :

" وكان هدف الإنزال والاستيلاء على ((الحديدة)) ذات ثلاثة أبعاد : ((تشكيل قاعدة لاستسلام القوات التركية في المنطقة ، وعودة الأسرى والرعايا البريطانيين المحتجزين .. وحفظ النظام في المدينة والمنطقة المجاورة لها في انتظار قرار خاص بملكيتها النهائية)) .

ويلفت نظرك أن مدينة الحديدة لم يتم تسليمها إلى الإمام يحيى بل ظل مستقبلها معلق أن بعبارة أدق لم يتم تحديد ملكيتها . وربما كان مناسبا أن نورد ما أورده الباحث البريطاني (بولدري) حول تلك القضية حيث كتب يقول : " وفي محادثات السلام التالية في باريس لم يتخذ قرار بخصوص ملكية الحديدة في المستقبل . وقد أصبحت ورقة مساومة في المفاوضا ت الأنجلو ــ يمنية : وعندما فشل العرض بتسليم المدينة إلى الإمام يحيى مقابل جلاء القوات اليمنية من أجزاء من محمية عدن ، سلمت بريطانيا المدينة للسيد محمد الإدريسي في ٢٩ يناير ١٩٢١ " .

الحصار البريطاني ونتائجه

وفي نهاية الكتاب (العمليات البحرية البريطانية ضد اليمن) ، يحلل مؤلفه جون بولدري النتائج التي ترتبت عليها حصار الأسطول البريطاني لجزر وموانئ اليمن ، وربما كان مناسبا أن نذكر ما قاله (بولدري) كالأتي :

وقنعت العمليات البحرية الدورية ـ الزوارق الصغيرة ـ ضد ((الشيخ سعيد))، و((الصليف)) المضايقة التركية البالغة لكل من ((ميون)) (بريم)) و ((كمران) ، وهما جزيرتان تعدان في ذلك الوقت ذاتي أهمية استراتيجية لبريطانيا ".

وأضاف قائلا : " أما سياسة محاصرة الموانئ التركية في اليمن ، فقد أعدت بشكل غير توفيقي ، لأنها لم تكن تضايق الأتراك فحسب بل ضايقت العرب اليمنيين الذين كانت بريطانيا تحاول بحماس كسب ودهم " . ويمضي في حديثه ، فيقول : " وفي اليمن نفسها لم تقابل الدعوة التركية إلى القبائل بالقيام بالجهاد ضد البريطانيين إلا استجابة ضئيلة " . وفي ختام الملاحظات الذي أبدها ((بولدري)) ، يقول : " ومن وجهة نظر البريطانيين في زمن الحرب فان العمليات الحرية ضد اليمن ، أثناء خضوعهاا للحكم التركي ، قد حققت أغراضها " .

كتاب قيّم

وفي الواقع يعد كتاب ((العمليات البحرية البريطانية ضد اليمن إبان الحكم التركي ١٩١٤ ــ ١٩١٩ ، من أفضل الكتب التي أرخت لفترة هامة من تاريخ اليمن الحديث وهي الحرب العالمية الأولى ،وأثرها على اليمن السياسي . والكتاب تكمن أهميته لكونه يعتمد على الوثائق البريطانية التي تروي تلك الأحداث الخطيرة التي وقعت على موانئ اليمن من جهة وتكشف لنا تفكير ((صانعي السياسة)) البريطانين والعسكريين أيضا ــ على حد قول الأستاذ الدكتور سيد سالم مصطفى في مقدمته للكتاب ــ ويعد الكتاب ـ كذلك ـ مرجع هام للباحثين والمؤرخين لدراسة أحداث الحرب العالمية الأولى وأثرها على اليمن وخصوصا في المجال السياسي ، وأقصد في المجال السياسي هو حكم الإمام يحيى في اليمن ، وهذا ما دفع بالباحث البريطاني (بولدري) أن يقول : " ويبقى الآن أمام مؤرخ يمني أن يقيم أثرها على مسار المفاوضات بين بريطانيا والإمام يحيى بين ١٩١٩ وتوقيع المعاهدة الأنجلو ـ يمنية في عام ١٩٣٤ " .

المرجع :

جون بولديري ، العمليات البحرية البريطانية ضد اليمن إبان الحكم التركي ١٩١٤ ـ ١٩١٩ ، ترجمة وتقديم دكتور سيد مصطفى سالم ، المطبعة الفنية في القاهرة .

منبر التراث

يا وزارة السياحة

في خان الخليلي

محمد زكريا

أبدا لي كثير من المسافرين اليمنيين الذين يزورون مصر في أوقات متفاوتة امتعاضهم الشديد بسبب ما شاهدوه ولمسوه من سرقة تراثنا اليمني المادي المتمثل بالحلي اليمني الفضية الذي يعد تشكيلاته أو قل صناعته غاية في الجمال والرقة والأناقة. هذا الحلي اليمني الأصيل يوجد في خان الخليلي بالقاهرة المعزية بمصر العربية، ويعرض في " فترينات "المحلات التي تبيع الحلي، بأنه حلي مصري مائة في المائة.

والجدير ذكره أن أصحاب المحلات المصريين في خان الخليلي يشترونه من تجار شنطة وبكميات كبيرة . ويقوم أصحاب محلات خان الخليل المتخصصين ببيع الحلي والتحف " والانتيكات " بتلميع هذه الحلي الفضية المصنوعة في اليمن بإضافة عليها بعض المواد التي تجعلها تلمع وتبرق في عيون السواح الأجانب، وتباع هذه الحلي الفضية بأنها مصرية ـ كما قلنا سابقا ـ وبأسعار كبيرة.

سرقة واضحة

والحقيقة أن الذي يحدث ذلك سرقة واضحة لتراثنا المادي اليمني من ناحية وسرقة بشعة لمجهود الصانع اليمني أو قل الفنان الماهر اليمني الذي بذل كل مجهوده من أجل أن يصنع حلي غاية في الإبداع والجمال ، فإذا مجهوده يسرق و يضيع منه من ناحية أخرى . فصناعة الحلي تمثل تراث شعبي مادي فهو يجسد هوية وأصالة وعراقة الشعوب ، فعندما يسرق أو قل يدعي أحد الذين أنسلخو من كل قيم ومبادئ الاعراف بأن ذلك التراث يعود له أو للمنطقة التي يعيشها فيها ، فإن ذلك يكون دعديا صريحا ووقحا على تراثنا اليمني من جهة وعلى الفنان اليمني المبدع الذي أودع كل فنه في صناعة وتشكيل حلى يعبر عن عظمة تراثنا اليمني وأولا وقبل كل على عظمة الفنان اليمني الذي يمتلك حس فني رقيق أو قل يمتلك أصابع رقيقة استطاعت أن تشكل حلي نابع من أصالة حضارته التليدة.

الحرفيون وسرقة مجهودهم

فصناعة الحلي تعرف بجانب مهم من جوانب الثقافة اليمنية ، بسبب أن صناعة الحلي هي من صميم صناعة الحرف اليدوية. أليس هناك مسؤلين في السياحة يقولون دائما أنهم يعملون على تشجيع الحرفيين ومساعدتهم في تسويق منتجاتهم ، والحث على استمرار هذه الحرف ، وذلك بدعم جميع الجهات المختصة لدعم الصناعات الحرفية وحمايتها.

وهاهو نرى أن صناعتنا الحرفية المتمثلة بصناعة الحلي وأنواعها تتسرب من دون حسيب ورقيب وتعرض وتباع بأنها صناعة مصرية.

أين وزارة السياحة ؟

والسؤال الذي يطرح نفسه أين وزارة السياحة عما يحدث من سرقات واضحة في عز النهار وهي مصنوعات الحلي الفضية اليمنية التي تعرض وتباع في محلات خان الخليلي بأنها مصرية ؟ ونرجو أن تعقب وزارة السياحة على هذه القضية الثقافية الخطيرة والهامة ... وأننا لمنتظرون .